فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

(مقاطع)

لم تظهر الطبعة الكاملة لكتاب الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا «كتاب اللاطمأنينة» إلاّ عام ١٩٨٢ . لم يتعد ما نشر منه، من قبل، بعض المقاطع والشذرات. ويبدو من خلال دراسات وتحقيقات المختصين أن بيسوا شرع في كتابة هذه اليوميات حوالى عام ١٩١٤ واستمر فيها حتى قبيل وفاته بأسابيع قليلة. ولا شكَّ في أن تأخر صدور الكتاب في طبعته «الكاملة» يعود إلى الصعوبات متعدّ دة المستويات التي واجهها المحققون المختصون في تصنيف وترتيب نصوص الكتاب، الذي وُجِد موزعاً على تسعة أغلفة، وخالياً تقريباً من أيِّ ترقيم أو عنونة أو تنظيم، بالإضافة إلى غموض الخطّ وكثرة التشطيبات والبياضات.

وقد سبق بيسوا أن نشر بعض المقاطع في حياته، في مجلتين أو ثلاث، وبخاصة في مجلة «حضور»، موقعة باسمه ومنسوبة إلى برنارد سوارش الذي اختلف دارسو أدب بيسوا بشأنه، فمنهم من اعتبره نديداً لبيسوا، ومنهم مَنْ عدّه نصف نديد، فيما ذهب آخرون إلى اعتباره مجرد اسم مستعار.

عليَّ أن أشير إلى أن الترجمة الإسبانية للكتاب ظهرت كاملة للمرة الأولى عام ١٩٨٥، وقد أنجزها الشاعر الإسباني Angel Crispo. وبلغ عدد الطبعات تسع عشرة طبعة حتى عام ١٩٩٨.

المترجم

فصل أول

عندما جاء الجيل الذي أنتمي إليه إلى الوجود لم يجد أي سند عقلي أو روحي. ذلك أن العمل الهدام الذي قامت به الأجيال السابقة لنا، جعل العالم الذي ولدنا فيه مفتقراً إلى الأمان الديني، وإلى الدعم الأخلاقي، وإلى الاستقرار السياسي. لقد ولدنا إذن في أوج القلق الميتافيزيقي، في أوج القلق الروحي، وفي أوج اللاطمأنينة السياسية. الأجيال التي سبقتنا لجأت. مُتْخَمةً بالصيغ الخارجية،

وبالمسائل البحتة للعقل والعلم، إلى الإطاحة بأسُ س الإيمان المسيحي كافَّ ة، لأن نقدها للكتاب المقدس، بانتقاله من نقد النصوص إلى النقد الميثولوجي، حَوَّلَ الأناجيل والعهد القديم لليهود إلى ركام مشكوك فيه من الأساطير والخرافات ومن الأدب المحض؛ أما نقدها العلمي فقد دَلَّ بالتدرج على الأخطاء وعلى السذاجات الهمجية لـ « العلم » البدائي للأناجيل؛ وفي الوقت نفسه فإن حرية الجدل التي أخرجت إلى النقاش العلني سائر المعضلات الميتافيزيقية، سحبت معها أيضاً كل القضايا والمشكلات الدينية المنتمية إلى الميتافيزيقا. لقد انتقدت تلك الأجيال، ثَملةً ومُتيَّمةً بما أسمته « الوضعية » الأخلاقيات كُلَّها وقلبت كافة قواعد الحياة. ومن صدمة تلك المعتقدات لم يبق سوى يقين زوالها بالكامل. إن مجتمعاً مُقَوَّضاً في نظامه وأسسه الثقافية لم يكن بقادر على أن يكون شيئاً آخر بالطبع، سوى ضحية، للانظامية تلك؛ وكذلك جرت الأمور كما لو أننا أيقظنا عالماً متعطشاً إلى الجديد الإجتماعي. سيمضي ذلك الجيل مبتهجاً بتحقيق حرية لم يعرف كنهها، وتقدم لم يتمكن قط من تحديد ماهيته.

لكن، إذا كان النقد الابتذالي لآبائنا قد أورثنا استحالة أن نكون مسيحيين، فإنه لم يورثنا، بالمقابل، الرضى بذلك. إذا كان قد أورثنا عدم الإيمان بالصيغ الأخلاقية المتحققة، فإنه لم يورثنا اللامبالاة تجاه الأخلاق وتجاه قواعد العيش الإنساني؛ إذا كان قد ترك المشكل السياسي بدون حل، فهو لم يدع روحنا لامبالية إزاء كيفية حل ذلك المشكل.

لقد قوّ ض آباؤنا ما قوضوا بفرح لأنهم عاشوا في لحظة كانت ما تزال محتفظة بانعكاسات من صلابة الماضي، الذي أطاحوا منه بما يهب المجتمع القوة حتى يتمكنوا من الهدم دون أن يشعروا بتشققات البناء. نحن إنما ورثنا الهدم ومخلفاته.

عالم اليوم هو عالم البلهاء وعديمي الإحساس والمهيجين. الحق في العيش وفي النجاح يتم اليوم بنفس المبررات التي يتم بها الحجز في مصحات الأمراض العقلية...

سلالة النهاية

أنتمي إلى جيل ورث الارتياب تجاه الإيمان المسيحي خالقاً في ذاته الكفر بكل أنواع الإيمان. آباؤنا ما زالوا يمتلكون الباعث الإيماني الذي نقلوه من المسيحية إلى أشكال أخرى من الوهم. بعضهم كان من المتحمسين للمساواة الإجتماعية. بعض منهم اقتصر على عشق الجمال لذاته. بعض آخر أودع إيمانه في العلم ومنافعه. وثمة آخرون، أكثر مسيحية، مضوا يبحثون في مشارق الأرض ومغاربها عن أشكال تدينية أخرى لتلهية الوعي الذي سيغدو مجوفاً بدونها في تجربة العيش الخالص. هذا كله فقدناه نحن، ومن كل هذه التعزيات والبلاسم وُلِدْنَا يتامى. كل حضارة تتبع الخط الخاص للدين الذي يمثلها : الانتقال إلى أديان أخرى يؤدي إلى إضاعة هذا الدين، وإلى إضاعة الأديان كلها في النهاية.

أما نحن فقد فقدنا هذا الدين منذ البداية، ومعه الأديان الأخرى بدورها، وانتهينا إلى الاستسلام لذواتنا الفردية، داخل وحشية الإحساس بالحياة. إن المَرْكَ ب، أي مركب هو أداةٌ هَدَفُها الإبحار. بيد أن الغاية الفعلية ليست هي الإبحار، وإنما الوصول إلى ميناء. نحن وجدنا أنفسنا مبحرين، فاقدين

لفكرة الميناء الذي علينا أن نرسو فيه . وهكذا أنجبنا، داخل الجنس الإنساني الموجوع، الوصفة المغامرة للأبطال الأسطوريين : الإبحار ضرورة، العيش لا .

بلا أوهام نعيش بالكاد من الحلم الذي هُو وَهْمُ من لا قدرة له على امتلاك الأوهام . وباقتياتنا من ذواتنا نزداد ضآلة، لأن الإنسان الكامل هو الإنسان المتجاهَ ل . وبافتقادنا للإيمان أصبحنا نعيش دون أمل . وبفقداننا الأمل لم تعد حَيَاتُ نا نحن هذه التي نحياها . ومع افتقارنا لأية فكرة عن المستقبل أصبحنا فاقدين لأية فكرة عن الحاضر . لأن الحاضر، بالنسبة إلى رجل الفعل ليس سوى مدخل للمستقبل . مَعَنَا مَيّتةً وُلدتْ طاقةُ الكفاح، لأننا ولدنا محرومين من حماسة الصراع . البعض منا سجنوا أنفسهم في مجرد امتلاك ما هو يومي، مبتذلين صغاراً يلهثون وراء خبز كل يوم، راغبين في الحصول عليه دون فعل محسوس، دون الوعي بالمجهود المبذول، دون نبالة ما يُنَال . آخرون من طينة أَ فضل : انسحبوا أو لنقل انسحبنا من الانشغال بالشأن العمومي، دون أن نرغب في شيء ولا أن نطمح إلى شيء، محاولين حمل صليب وجودنا إلى جلجلة النسيان، مجهود لا طائل وراءه بالنسبة إلى من لا يملك، مثل حامل الصليب، محركاً إلهياً داخل وعيه .

آخرون استسلموا، بانشغالهم بما يقع خارج الروح، للصخب والفوضى . يحسبون أنهم يحيون إذ يتبادلون الإنصات . ويحسبون أنهم يجربون الحب عندما يقعون في قشوره . يؤلمنا العيش لأننا نعلم أننا نعيش؛ الموت لا يخيفنا، لأننا فقدنا المفهوم المعتاد عن الموت .

غير أن آخرين من سلالة النهاية، الحد الروحي للساعة الميتة، لم يمتلكوا قسمة الرفض ولا الملاذ في ذواتهم، ما عاشوه عاشوه في النفي والإنكار والغم . لكننا عشناه من الداخل، بلا إشارات منبهة، محبوسين دائماً ، على الأقل فيما يتعلق بنوع الحياة، بين الجدران الأربعة للغرفة والجدران الأربعة لانعدام المعرفة بالفعل .

لو كان العالم ملك يدي

رابط الجأش، أواجه حبسي الدائم لحياتي في شارع Los Doradores [1] هذا، في نفس هذا المكتب، بين هؤلاء الناس . حيث أعيش بالقليل المتاح لي، وحيث المحدود من الفضاء الحر المتاح في الزمن لي كيما أحلم، أكتب ـ أنام ـ ، وما الذي بإمكاني أن ألتمسه أنا من الآلهة أو أتوقعه من القدر ؟

كانت لديّ طموحات كبيرة وأحلام واسعة، لكن الحَمَّال ومتعلمة الخياطة كذلك كانت لديهما نفس الأحلام . لأن الأحلام مشاع للجميع : ما يجعلنا متمايزين هو القدرة على تحقيقها أو قدرة تحققها فينا . في الحلم نحن سواء متعلمة الخياطة والحمال وأنا، ما يميزني عنهما هو معرفتي بالكتابة التي هي فعل خاص بي . على مستوى الروح نحن سواء . حسناً أعرف أن هناك جزراً في الجنوب وعشقيات كونية كبيرة و [2] .

لو كان العالم ملك يدي لغيرته، وأنا متيقن، مقابل تذكرة شارع Los Doradores .

ربما كان مقيضاً لي أن أظل محاسباً إلى الأبد . أما الأدب والشعر فهما بمثابة فراشة كلما كانت

أجمل وأبهى بَدَوْتُ أكثر إثارة للسخرية بفعل حومانها فوق رأسي.
سأحس بكل اشتياقات Moriera [٣]، لكن ما الذي تعنيه الاشتياقات أمام المعارج الكبرى؟.
أعلم جيداً أن اليوم الذي سأغدو فيه محاسباً [٤] في إدارة فاسكيز سيكون من الأيام المجيدة في حياتي. أعلم ذلك بتكهن استباقي مرير وتهكمي لكنني أعلمه بالامتياز العقلي لليقين.

حديث النثر

أُفضِّل النثر على الشعر، كشكل من أشكال الفن لسببين: الأول شخصي خاص وهو أنني غير قادر على الاختيار، وإذن فأنا عاجز عن كتابة الشعر. السبب الثاني عام، وهو ليس ـ أعتقد ذلك حقاً ـ ظلاً أو قناعاً للأول، ... إنه يمس المفهوم الخاص لقيمة الفن بكاملها.
أعتبر الشعر شيئاً وسيطاً، خطوة من الموسيقى باتجاه النثر. الشعر، مثل الموسيقى، محكوم بقوانين إيقاعية محددة، وحتى لو لم تكن من نمط القوانين الصارمة للشعر المنظوم، فهي قائمة، مع ذلك، كدفاعات، كإكراهات، كأجهزة أوتوماتيكية للضغط والعقاب. في النثر نحن نتحدث أحراراً. بإمكاننا أن نضمن إيقاعات شعرية، وأن نوجد خارجها، مع ذلك. إن تسرب إيقاع شعري معين بصفة عرضية إلى النثر لا يعوق النثر؛ لكن تسرب إيقاع نثري عرضاً إلى الشعر يفسد الشعر.
الفن كله متضمن في النثر. من جهة لأنه في الكلمة، الكلمة الحرة يتركز العالم بكامله. ومن جهة ثانية لأنه في الكلمة الحرة توجد الإمكانية الكاملة لكي نعبر عن العالم ونفكر فيه في آن. في النثر نمنحه كل شيء، بواسطة التحويل: نمنحه اللون والشكل اللذين ليس بمقدور الرسم منحه إياهما إلا على نحو مباشر، وبدون أي بعد حميم؛ ونمنحه الإيقاع الذي لا تمنحه الموسيقى إلا مباشرة أيضاً، ودون شكل مُجَسْدَن، ومجرّداً من ذلك الجسد الثاني الذي هو الفكرة؛ ونمنحه البنية التي إذا كان على المعماري أن يشكلها من مواد صلبة، معطاة وخارجية فإننا نصنعها من إيقاعات وترديدات من متتاليات وانسيابات؛ ثم نمنحه الواقعية التي على المَثَّال أن يخلقها في العالم بلا ليونة ولا استحالة؛ وأخيراً نمنحه الشعر، الشعر الذي دور الشاعر فيه شبيه بدور المبتدئ في محفل سري، هو عبد، وإن طوعاً، لمقامات وطقوس معينة.
إنني على يقين من أنه، في عالم متحضر تماماً، لن يوجد فن آخر غير النثر.
سوف نترك الغروب للغروب، معتنين بالفن وحده، مستوعبينه شفوياً، ناقلينه هكذا بواسطة موسيقى تفهم بالقلب. لن نصنع نحتاً للأجساد التي ستحتفظ، مرئية وممسوسة، برونقها متحركاً وبرودتها ناعمة. سننشئ بيوتاً، فقط لنقيم فيها، وهو ما من أجله وجدت البيوت في النهاية. أما الشعر فسيبقى ليقرب الأطفال من النثر المستقبلي، لأن الشعر، بالفعل، طفولي وأولي وتحضيري.
حتى الفنون الدنيا، أو تلك التي يمكن تسميتها كذلك، تظهر وشوشاتها في النثر. ثمة نثر يرقص، نثر يغني، نثر ينشد بذاته لذاته. ثمة إيقاعات شفهية هي بحدّ ذاتها رقصات تتعرى فيها الفكرة ملتوية بشهوية وحسوية نصف شفافة ومتقنة، ثمت في النثر أيضاً خبايا مرتعشة. يبث فيها ممثل كبير هو الفعل، بجوهره المُجَسْدن، عبر الإيقاع، سِرَّ الكون المتعذر على الإدراك المحسوس.

شهوة الكلمات

يحلو لي التلاعب بالكلمات . إنها بالنسبة إليّ أجساد يمكن لمسها، حوريات مرئيات، شهويات لا ماديات . ذلك لأن الشهوة الفعلية لا تستثير أي اهتمام لديّ . سواء في الواقع أو في الأحلام، لقد استَعضْتُ عنها بِمَا يُولِّدُ الإيقاعات الشفوية لَديَّ أو الرغبة في الإنصات إلى تجسُّدها عند الآخرين، بحيث تتولد الرعشة فِيَّ عندما يَتِمُّ التلفظ بها بإتقان . من ذلك مثلاً أن قراءة صفحة لـ FIALHO [٥] . أو لشاتوبريان من شأنها أن تُصيبَ شراييني بالتَّنَمُّل مُسبِّبةً لي ألماً شديداً مصحوباً بقشعريرة داخلية هادئة بفعل المتعة الغالية التي أجنيها من هذه القراءة .

كما أن صفحة من صفحات Vieira [٦] بإتقانها البارد ذي الهندسة النحوية تحملني على الارتعاش ارتعاشة غصن إزاء الريح في هذيان مُنْصاع لشيء نَوّاس .

ومثل كل العشاق الكبار أعشق حلاوة الانفقاد في ذاتي نفسها، حيث متعة الاستسلام كاملةً تُعاش . هكذا أكتب، أحايين كثيرة، بدون رغبة في التفكير في أي هذيان خارجي، مُسْلِماً أمري للكلمات تصنع احتفالاتها بي، مثل طفل صغير في حضنه الأليف، جمل لا معنى لها تجري ناعمة جريان مياه محسوسة، جداول غفل، حيث الموجات تختلط لا مُتعينة متحوّلةً باستمرار إلى غير ما كانته . . كذلك الأفكار، الصور، رعشات التعبير، من خلالي تمرُّ ، بمغازلات صائتة لتموجات حريرية خافتة . حيثُ مُبْهماً يهتزُّ الصَّفاء القَمريُّ للأفكار .

مَا تَسْلُبني إيَّاهُ الحياة وما تهبني لا يعنيني ولا يبكيني . بالمقابل لطالما أبكتني بضع صفحات من النثر . أتذكر، كما لو كنت أرى ذلك بعيني الآن، في تلك الليلة، طفلاً كنت ما أزال حينما قرأت، للمرة الأولى، في إحدى المختارات ما أورده Vieira بخصوص الملك سليمان :

« صنع سليمان قصراً . . » . وواصلت القراءة، حتى النهاية، مرتعشاً ، متحيراً كيما أنخرط في بكاء سعيد مديد، لم ولن يكون بمقدور أي سعادة واقعية أن توفره لي، ولا أي حزن من أحزان الحياة أن يدفعني إلى تقليده .

تلك الحركة الكهنوتية للغتنا الواضحة المهيبة . ذلك التعبير عن الأفكار في الكلمات اللاّمناصّ منها . ذلك الجريان المائي بفعل انحدار المجرى، ذلك الانخطاف الصوتي حيث الأصوات ألوان ذهنية؛ ذلك كله كان يسكرني غريزياً كما لو باهتياج سياسي هائل . لذلك بكيت؛ واليوم، إذ أتذكر، أبكي، لا حنيناً ـ لا ـ إلى الطفولة التي ليس لديَّ أي حنين إليها : بل هو الحنين العاطفي إلى تلك اللحظة، والحزن المتولد عن العجز عن قراءة ذلك التأكيد السنفوني .

لا أملك أي نوع من المشاعر السياسية أو الإجتماعية إلا أنني أملك، بمعنى من المعاني، شعوراً وطنياً عالياً جداً . أما وطني فهو اللغة البرتغالية . ولن يحزنني أن تُجْتاحَ البرتغال أو تُحْتلَّ ، طالما لم يصبني الأذى شخصياً . لكنني أشعر بكراهية حقيقية، هي الكراهية الوحيدة التي أستشعرها إزاء، لا من يكتب البرتغالية سيئاً ، ولا من يجهل النحو، ولا من يكتب وفق قواعد إملائية مبسطة، وإنما نحو الصفحة المكتوبة بشكل سيء، كما لو كان شعوراً بالكراهية نحو شخص بعينه . أكره النحو المستعمل

مغلوطاً كراهيتي لأشخاص يتوجب صفعهم، أكره الاستعمال اللا مضبوط لقواعد الإملاء، كما لو أن الأمر يتعلق ببصقة مباشرة.

أجل، ذلك أن قواعد الإملاء هي كائنات بشرية بدورها. الكلمة كائن كامل مرئيّةً ومسموعةً.

ملك روما

فَكّرتُ اليوم، أثناء لحظة إحساس معينة، في شكل النثر الذي أستعمله. حقاً ، لا بد من التساؤل، كيف أكتب؟ لقد كانت لديّ ، مثل الجميع، تلك الرغبة المفسدة في امتلاك نظام وقاعدة بهذا الشأن. أكيد أنني مارست الكتابة قبل امتلاك أي قاعدة أو نظام. وأنا لا أختلف بهذا عن الآخرين.

وقد اكتشفت، بتحليلٍ ذاتيٍّ قمتُ به هذا المساء، أن نظام الأسلوب عندي يرتكز على أساسين ينبنيان بدورهما حسب الطريقة المثلى للكلاسيكيين الجيدين على الأسس العامة لكل أسلوب وهما: أن أعبر عمّا أحسّ تماماً وِفْقَ مَا أُحِسُّ-بوضوح إن كان ما أحسّه واضحاً ، وبغموض إن كان غامضاً ، وملتبساً إن كان ما أحسّه ملتبساً بالفعل-؛ أن أدرك أن قواعد النحو هي أداة وحسب وليست قانوناً.

لنفترض أنني أشاهد أمامكم فتاة ذات سلوك ذكوري. إذن هناك شخص عامي سيقول عنها: « البنت تبدو ولداً » ثم شخص آخر سيقول، إنما بصيغة أقرب إلى الوعي بأن الكلام هو التعبير: « هذه البنت ولد »، شخص ثالث واعٍ هو الآخر بمتطلبات التعبير، لكنه، مدفوعاً بنزوة الاقتضاب الذي هو التجسيد الحي لشبقية الفكر، سيقول عنها: « ذلك الولد ». أما أنا فسأقول على الفور: « تلك الولد »، منتهكاً أكثر القواعد النحوية أساسية وهي الملزمة بتوفر تطابق في الجنس والعدد بين النعت والمنعوت.

وسأقول حسناً.. أنا استخدمت الألفاظ مُطْلَقةً ، على نحو فوتوغرافي، خارج المألوف، خارج القاعدة، وخارج ما هو مبتذل، وبذلك فأنا لم أتكلم وإنما عَبَّرت.

إذا فحصنا الاستعمالات اللغوية، نجد النحو يضع تقسيمات مشروعة وزائفة. فهو مثلاً يقسم الأفعال إلى لازمة ومتعدية. لكن الإنسان الذي يجيد التعبير عمّا يحس ينبغي عليه أحياناً كثيرة أن يحول فعلاً متعدياً إلى لازم حتى يصور بالضبط ما يحسّه. لو أردت مثلاً أن أقول « أنا موجود » existo لقلت: "Soy"[٧]. لو شئت أن أقول بأنني أوجد كروح منفصلة سأقول: "Soy yo". لكن إذا أردت أن أقول بأنني موجود كذات متشكلة بذاتها وتمارس إزاء ذاتها الوظيفة الإلاهية لخلق ذاتها (crearse). فكيف ينبغي أن أستعمل الفعل (ser) (الدال على الكينونة) إن لم أُحَوِّلْهُ من اللزوم إلى التعدية؟ وحينئذٍ ، وبصوتٍ عالٍ ، وضد النحو وبإحساس الظافر، سأقول: "Me soy". وبذلك أكون قد عبرت عن فلسفة بكاملها في لفظتين صغيرتين. أوَ يُمْكن أن نطلب أكثر من هذا من الفلسفة والتعبير معاً؟.

من لا يعرف كيف يفكر ما يحس هو الذي يخضع للنحو، أما الذي يخدمه بالفعل فهو من يعرف التحكم في استعمالاته التعبيرية. يُحْكَى عن سيجموند ملك روما، أنه أجاب بعض من نبهه إلى خطأ نحوي ارتكبه أثناء إلقائه لإحدى خطبه: « أنا ملك روما، وملك النحو علاوة على ذلك ».

والتاريخ يروي أنه عُرف خلال حكمه باعتباره سيجموند « السُّوبر نَحْوِي » . رمز عجيب بلا شك ! . كل من يعرف قول ما يقول هو ملك روما بطريقته الخاصة . . .

من أنا ؟

كل شيء يفلت مني . حياتي كلها ، ذكرياتي ، مخيلتي بما تحتويه ، شخصيتي ، الكل يتبخر ، أحس باستمرار أنني كنت شخصاً آخر ، وأنني أحسست وفكرت بأنني آخر . وذلك الذي أعاينه هو مشهد من سيناريو آخر . ذلك الذي أعاينه هو أنا بالذات .

أحياناً أعثر في الفوضى الخاوية لأدراجي الأدبية ، على أوراق كتبتها منذ عشر سنوات ، منذ خمس عشرة سنة ، وربما أكثر . والكثير من هذه الأوراق يبدو لي منتمياً لرجل غريب . إذ لا أتعرف على نفسي فيها . لا بد أن أحداً قد كتب هذه الأوراق . وهذا الكاتب هو أنا . أنا الذي عايشها بإحساسه ، لكن ذلك حدث في حياة أخرى سبق أن استيقظتُ منها كما لو من حلم ينتمي للغير .

يحدث مراراً أن أعثر على أشياء كتبتها وأنا شاب صغير ، مقاطع تعود إلى سن الثامنة عشرة ، مقاطع تعود إلى العشرين . وبعضها يمتلك قوة تعبير لا أتذكر كيف كنت قادراً على امتلاكها في تلك المرحلة من عمري . ثمة مقاطع تَخُصُّ أُموراً مكتوبة بُعَيْدَ مراهقتي ، تبدو لي من ثمار شخصي الراهن الذي حنكته سنوات وتجارب وأحداث . أعرف أنني لست ذلك الذي كان . ومع إحساسي بأنني أعرف تطوراً كبيراً بالمقارنة مع ما كنته ، أسأل أين يوجد هذا التطور إن كنت حينئذٍ الشخص نفسه الذي أنا اليوم .

ثمت في هذا كله لغز محيّر يحبطني ويغمني . منذ أيام عانيت من إحساس مرعب ، بسبب نصٍّ مكتوب قصير لي يعود إلى الماضي . أتذكر تماماً وسواسي البارز فيه تجاه اللغة التي تعود إلى سنوات قليلة خلت . ثم في أحد الأدراج عثرت على نصٍّ مكتوب لي ، يعود إلى تاريخ أقدم ، يبدو فيه وسواسي ذاك مُبرِّزاً بقوة . لم أدرك في الماضي إدراكاً إيجابياً ، كيف أمكنني أن أتطور لأصبح ما كنته بالفعل حينئذٍ ؟ كيف عرفت ما كنت أجهله بالأمس ؟ والكل متداخل عندي داخل متاهة أنا التائه في ذاتي فيها .

مفكراً أغرق في الهذيان ، موقناً بأن ما أكتبه الآن قد كتبته بالفعل من قبل . أتذكر ذلك ، وأسأل هذا الموجود المزهو فِيَّ أين يوجد إن لم يكن في أفلاطونية الأحاسيس ذاكرة أخرى ، ذكرى أُخرى من حياة سابقة تنتمي بالكاد إلى هذه الحياة . . .

يا إلهي . . يا إلهي . مَن أكون ؟ كم من ذوات أنا ؟ من هو أنا ؟ ما هو هذا الفاصل الموجود بيني وبيني ؟ .

عمر الخيام

عمر الخيام كانت له شخصية معينة ، أما أنا ، فلا أملك ، لحسن الحظ أو لسوئه ، أي شخصية على الإطلاق . ما أكونه في لحظة معينة ، أنفصل عنه في اللحظة الموالية ؛ ما كنته ذات يوم ، أنساه في اليوم

الذي يليه. لا يشبه عمر الخيام إلا ذاك الذي يعيش في عالم واحد، هو العالم الخارجي، أما من هو مثلي فيحيا في عالم داخلي متعاقب متنوع. وحتى لو رغب في أن تكون له نفس فلسفة عمر الخيام فلن يستطيع ذلك حتماً. هكذا أمتلك فِيَّ ، ولو لم أرغب في ذلك حقاً ، الفلسفاتِ التي أنتقدها كما لو كانت أرواحاً مقيمة بداخلي؛ بإمكان عمر الخيام أن يستبعدها لأنها شيء خارجي بالنسبة إليه، أما أنا فلست بقادر على ذلك، لأنها أناي.

روحي

روحي عبارة عن أوركسترا خفية : لا أدري أي الآلات تعزف فيها أو تصر، أوتار وقياثير، نقارات وطبول، بداخلي. لا أتعرف على ذاتي إلا كسنفونية وحسب.

لا أحد

توصلت اليوم، إلى إحساس لا معقول وصحيح في آن، لقد تنبهت، بوميض برق باطني، إلى أنني لا أحد. لا أحد، على الإطلاق لا أحد. حينما أضاء البرق، هناك حيث المدينة المفترضة لم يكن ثمة غير سهل قاحل، أما النور الذي أسفر عنه فلم يكن ليكشف أي سماء فوقه. لقد سُرِقتْ مني قدرة أن أوجد قبل وجود العالم. وإذا كان عَليَّ أن أعاود التجسّ د، لَقَدْ عاودتُ التجسد بدوني، بغير تجسُّد أناي.

أنا هوامش مدينة ليس لها وجود، أنا التعليق المسهب على كتاب لم يكتب، لست بأحد أنا، لا أحد. لا أعرف كيف أحس، لا أعرف كيف أفكر، لا أعرف أن أرغب، أن أريد. أنا نموذج (شخص) في رواية ينبغي أن تكتب، يمر مرور الأثير، ويتوارى، بدون أن يكون قد وُجِدَ ، في أحلام مَنْ لا يعرف مَنْحى الاكتمال.

دائماً أفكر، دائماً أحس، لكن تفكيري لا يحوي أي منطق. وعاطفتي خالية من أية عواطف.

أحس بأنني أسقط، عبر الفخ المنصوب هناك في الأعلى، في الفضاء اللانهائي بتمامه، سقوطاً ليس له اتجاه، سقوطاً لا متناهياً وفارغاً ، روحي تيار بحري أسود، دوار أسود حول الفراغ، حركة محيط لا نهائي حول ثقب من هباء، وفي المياه الدوارة، تطفو جميع صور ما رأيتُ وما سمعتُ في هذا العالم ـمنازل تمر، وجوه، كتب، صناديق، مخلفات موسيقية، مقاطع أصوات في دوامة عَسْراء ليس لها قرار.

وأنا، أنا بالفعل، أنا المركز اللاوجود له لهذا كله إلا بهندسة الهاوية؛ أنا الهباء الذي حوله تدور هذه الحركة بدون أن يكون لذلك المركز من وجود سوى لأنه دائرة كله دائرة. أنا حقاً ، أنا البئر بلا حيطان، إنَّما بِكُلِّ اللزوجة التي تملكها الحيطان. أنا مركز الكل محاطاً بالهباء.

ذلك أنه، فِيَّ أنا، كما لو أن الجحيم نفسها مع إنسانية الشياطين تضحكان، فِيَّ أنا يثوي الجنون النَّ عاق للكون الميت، الجثة الدوارة للفضاء الفيزيقي، نهاية العوالم كلها وهي تتقلب مسوْدّةً أمام الريح، مشوَّ هة، مهجورة، بدون الله الذي قد يكون خالقها، بدونه هو ذاته متدحرِجاً في غياهب

الغياهب، مستحيلاً ، فريداً ـ كل شيء.
أن أعرف كيف أفكر! أن أعرف كيف أحس!
في فترة مبكرة جداً توفيت أمي، وأنا لم يتح لي التعرف عليها.

١٩٣١ / ١٢ / ١

وسواس
فَلأَمْنَحْ كُلَّ عاطفة شخصيةً خاصة بها، كُلَّ وضع من أوضاع الروح رُوحاً مستقلة.

ما يرى من الداخل
لأنني لا أملك ما أفعل؛ ولا حتى التفكير فيما عليّ أن أفعل، سأضع على هذا الورق خطاطة وصف لحاشية نموذجية؛ أريد حساسية مالارمي داخل أسلوب فييرا، الحلم على طريقة فرلين بجسد هوراس؛ أن أكون هوميروس على ضوء القمر.
أريد أن أحس كل شيء بكل الأشكال الممكنة وغير الممكنة؛ أن أعرف كيف أفكر بالأحاسيس وأحس بواسطة الأفكار، ألا يكون لي طموح إلا بواسطة الخيال؛ أن أتألم بدلال؛ أن أرى ما أراه بوضوح كيما أكتب بطريقة صحيحة؛ أن تكون معرفتي ممنهجة ومداجية، . . وبالجملة أن أستخدم من الداخل الأحاسيس كلها، نازعاً عنها القشور قشرة قشرة، حتى أصل إلى الله، لكن مع تغليفها من جديد وإعادتها إلى الواجهة الزجاجية على نحو ما يفعل ذلك البائع الذي أراه من هنا بعلب زفت صغيرة من النوع الجديد.
كل هذه الرغبات المثالية الممكنة أو المستحيلة تتبخر الآن، ثمة الواقع أمامي : ليس البائع ما أرى، إنها يده (البائع لا أراه)، وهي مَلْمَسٌ لا معقول لروح ذات عائلة وحظ، يصنع تعرجات لعنكبوت لا نسيج له عبر تَمَدُّدِ اسْتَعادَةِ الهنَاكَ الذي قبالتي.

١٩٣٠

الصدى والهاوية
بالتفكير خَلَقتُ صدى وهاوية، بتعمقي ذاتي تكاثرت. الحادث العرضي، الصغير جداً ، ما ينبثق عن الضوء من تغير، السقوط الملفوف لورقة جافة، البتلة المنتزعة مُصْفَرّةً ، صَوْتُ الجانب الآخر من الجدار أو خطوات المُتَلفِّظِ بالصوت جنب خطوات من ينبغي أن يسمعه، البوابة المواربة للضيعة القديمة، الساحة المنفتحة على قوس البيوت المتجمعة تحت ضوء القمر، كل هذه الأشياء، التي لا تنتمي إليّ ، تُثبِّتُ فِيَّ التأمل الحَسَّاس بأواصر من رنين وحنين. في كل إحساس من تلك الإحساسات أشعر أنني آخر، متألماً أَتَجدَّدُ في إحساس لا مُحدَّد.
من أحاسيس لا تنتمي إليَّ أَحْيَاناً، غَيْرَ عابئ بالتنازلات، آخرَ أغدو في الشكل مثلما أنا بالفعل.

أنا المسرح الحي

خَلَقْتُ فِيَّ شخصيات متعددة، باستمرار أخلق شخصيات بداخلي. كل حلم من أحلامي، يتجسد لحظة ظهوره كحلم، في شخص آخر، يصبح هو حالم الحلم وأبقى أنا خالي الوفاض.

لكي أبني، كان عليّ أن أتهدم: كثيراً ما كنتُ بَرَّانياً داخل ذاتي. لأنني لا أوجد داخل ذاتي إلا خارجياً. أنا المسرح الحي الذي تتعاقب عليه أدوار ممثلين متنوعين يشخصون أعمالاً درامية شاسعة التنوع.

أغنية بلد بعيد

كان يغني، بصوت شديد النعومة، أغنية بلد بعيد. وكانت الموسيقى تجعل الكلمات المجهولة أليفة حميمة، يبدو أنها كانت أغنية روحية من أغاني الفادو، لكن بغير أي شبه بالفادو.

كانت الأغنية تعبر، بالكلمات الكتيمة والنغم الإنساني، عن أشياء كائنة في أرواح الجميع وما من أحد يعرفها. وكان هو يؤديها بنوع من التوهيم، متجاهلاً المستمعين بنظره، بانتشاءة متسكع شوارع.

الناس المتجمعون كانوا ينصتون إليه بلا جلجل مرئي. كانت الأغنية أغنية العالم كله، والكلمات تتحدث إلينا عن السر الشرقي لجنس مفقود.

ضوضاء المدينة ما كانت لتنفذ إلى مسمعي، والسيارات كانت تمرق عن قرب إلى حدّ أن إحداها لامست ذيل بدلتي. لكنني كنت أحسها بدون أن أسمعها. كان هناك في أغنية المجهول امتصاص مريح لذلك المحلوم المتعذر فينا. الحادث كان حادث متسكع عابر، وكلنا ركزنا نظرنا على الشرطي الذي دار حول زاوية الشارع على مهل، ثم دنا متوقفاً للحظة خلف حامل المظلات، كمن يتفرج على مشهد، في تلك اللحظة. كَفَّ المغني عن الغناء، لم ينبس أحد بشيء، وحينئذٍ تدخل الشرطي.

أشياء تمر بدون أن تحدث

الحالمون بالممكن، والمنطقي القريب يثيرون شفقتي أكثر من الحالمين بالبعيد والغريب. الحالمون بالكبير، هم إما مجانين يؤمنون بما يحلمون محققين بذلك سعادتهم الخاصة، وإما هذيانيون بسطاء مِمَّنْ يمثِّل الهذيان بالنسبة إليهم موسيقى روحية تهدهدهم بدون أن تقول لهم شيئاً. لكن من يحلم بالممكن لديه دوماً الإمكانية الواقعية لخيبة الأمل الحقيقية. لا يمكن أن يؤثر فِيَّ كثيراً لو تَخلَّيْتُ عن أن أكون امبراطوراً رومانياً، لكن يمكن أن يؤلمني عدم قدرتي على محادثة الخياطة التي تجتاز، حوالى الساعة التاسعة صباحاً، الزاوية اليمنى من الشارع. الحلم الذي يعدنا بالمستحيل يحرمنا منه بمجرد الاستسلام للحلم. لكن الحلم الذي يَعِدُنَا بالممكن يندرج في الحياة الفعلية وَيُفوِّضُ لها إمكانية تحققه، الأول يحيا منفصلاً ومستقلاً؛ الثاني خاضعاً لاحتمالات الحدث.

لذلك أحب المشاهد الطبيعية المستحيلة والفيافي الشاسعة التي لن أطأها أبداً. إن للحقب التاريخية الماضية روعة خالصة، لذلك، لا يمكنني بالطبع التفكير في إمكانية العيش فيها. لا أنام إلا عندما

أحلم بما لا وجود له، وأستيقظ فقد عندما أحلم بما يمكن أن يوجد .

أطل، من إحدى نوافذ المكتب الخالي في منتصف النهار، على الشارع الذي يحس شرودي بحركات الناس في العيون، بدون أن يراهم، من خلال المسافة الفاصلة لتأملاتي . أنام على المرفقين، حيث يؤلمني الدرابزين . . . تفاصيل الشارع الخامل حيث يسير الكثيرون، تفصلني بعيداً ، ذهنياً : الصناديق المكدسة في العربة، الأكياس الموضوعة عند باب المخزن، وفي الواجهة الزجاجية البعيدة للمتجر الكائن في الزاوية . بمعروضات ما وراء البحار، ألمح قنينات خمر أوبرطو التي أتخيل ألا أحد يستطيع شراءها . ينفصل عني جوهر النصف الآخر من المادة . أتفحص وأنقب بالتخيل وحده . الناس الذين يمرون عبر الشارع هم دائماً نفس الناس الذين مروا منذ قليل، إنه المظهر المتقلب لأحد ما، بُقَعٌ بلا حركة، أصوات مرتابة، أشياء تمر بدون أن تكون قد حدثت بالفعل .

التفسير بواسطة الوعي الحواسي، قبل الحواس ذاتها . . . إمكانية أشياء أخرى . . . و، بغتة، يرن، من ورائي، في المكتب، نداء الصَّبِيِّ المستخدم كما لو من هاوية ميتافيزيقية . أشعر بأنني قادر على قتله لأنه قطع عليّ حبل ما لم أكن أفكر فيه . أنظر إليه، بصمت مفعم بالكراهية، أنصت مسبقاً ، بنية قتل دفينة، إلى الصوت الذي سيهم بأن يقول لي شيئاً . يبتسم من داخل البيت ويقدم لي تحية المساء بصوت عالٍ . أكرهه مثلما أكره الكون . عيناي مثقلتان بالنعاس .

«محاولة عيش»

منذ أن انتقلت الأمطار الأخيرة نحو الجنوب، وبقيت، وحدها الريح، التي كنستها، عادت إلى تجمعات المدينة بهجة الشمس الأكيدة وظهرت ثياب بيضاء كثيرة معلقة على الحبال الممدودة بواسطة القضبان في النوافذ العالية للمنازل المتعددة الألوان .

بدوري أصبحت فرحاً ، لأنني موجود . لقد خرجت من البيت تحدوني غاية كبرى، هي في النهاية، الوصول إلى المكتب في الوقت المحدد . لكن في هذا اليوم، يبدو أن القسر المحض للحياة قد انصاع لذلك القسر الآخر المحبب، الذي جعل الشمس تأتي في ساعات التقويم متطابقة مع عرض وطول الأمكنة الأرضية . لقد أحسستني سعيداً لأنه لم يكن بمستطاعي أن أحسني بائساً . نزلت الشارع مرتاحاً ، مفعماً باليقين، لأن المكتب المعروف، في آخر المطاف، والناس المعروفين الموجودين بالمكتب، كانوا من اليقينيات . ما كان ليدهشني إحساسي بأنني حر، بدون أن أعرف لماذا . في السلال الموضوعة على جوانب أرصفة شارع La Plata [٨] كانت أعذاق الموز المعروضة للبيع، تحت الشمس، فاقعة الصفرة .

أنا فرح، فوق كل شيء، بالقليل : بتوقف المطر، بوجود شمس طيبة في هذا الجنوب السعيد، بالموز المتجاوز حدّ الاصفرار بما يعروه من بقع سوداء، بالناس الذين يبيعونه لأنهم يتبادلون الحديث، بأرصفة شارع La Plata ، بنهر التاج في العمق، أزرق مخضراً ضارباً إلى الذهب، وبكل هذا الركن الأليف من نظام الكون .

سوف يأتي اليوم الذي لن يكون بمقدوري أن أرى فيه هذه الأشياء، اليوم الذي ستستمر فيه حية

أعذاق الموز بجانب الرصيف، وأصوات البائعات الفطنات، والصحف اليومية التي نشرها الصبي الصغير في زاوية الرصيف الآخر من الشارع. حسناً أعلم أن الموز سيكون موزاً آخر وكذلك البائعات، وأن الصحف سيكون لها، بالنسبة إلى من سينحني لرؤيتها، تاريخ آخر ليس هو اليوم، لكنهم، لكونهم لا يحيون، يستمرون وإن كانوا آخرين؛ أما أنا، الذي أعيش، فعابر ولو كنت نفسي.

هذه اللحظة يمكن الاحتفال بها بشراء الموز، إذ يبدو لي أنه في هذا الموز قد تركّزتْ كل شمس هذا اليوم مثل فانوس بلا بطارية. لكنني أخجل من الطقوس، من الرموز، من شراء أشياء في الشارع. بإمكانهم ألا يُلَفِّفُوا الموز جيداً ، ألا يبيعونيه كما يجب أن يباع لعدم معرفتي بشرائه كما ينبغي أن يشترى، يمكنهم أن يستغربوا صوتي عند سؤالي عن الثمن. أن أكتب خير لي من أن أجازف بأن أعيش، حتى ولو كانت محاولة العيش مجرد شراء موزات تحت الشمس، طالما ثمة شمس وموز معروض للبيع.

فيما بعد، ربما... أجل، فيما بعد... آخر.. يوم آخر، ربما.. لا أدري...

ملوك الواقع، ملوك الحلم

ما يدهشني أكثر من غيره ليس هو البلادة التي يحيا بها أغلب الناس حياتهم : وإنما الذكاء الموجود في تلك البلادة.

إن رتابة الحيوات العامية تبدو، مرعبة، في الظاهر. في هذا المطعم الشعبي أتناول غدائي، وأنظر، فيما وراء الحاجز الخشبي، إلى هيأة الطباخ؛ وهنا، بجانبي، واقفاً يوجد النادل الكهل الذي يخدمني، كما كان يفعل منذ ثلاثين عاماً في هذا المطعم، ترى إلى أي نوع من الحياة تنتمي حياة هذين الرجلين؟ منذ أربعين عاماً ظل ذلك الرجل يعيش حياته كل يوم تقريباً داخل مطبخ؛ العطل المتاحة له قصيرة؛ ينام نسبياً ساعات قليلة؛ يذهب من حين إلى آخر إلى بلدته، التي يعود منها بلا تردد ولا حسرة؛ يدخر ببطء مالاً لا ينبغي إنفاقه؛ سوف يغدو مريضاً إذا ما أجبر على ترك مطبخه (بصفة نهائية) قصد التوجه إلى الحقول التي اشتراها في غاليسيا[٩] ، إنه مقيم في لشبونة منذ أربعين عاماً. ولم يسبق له قط الذهاب، حتى إلى روطوندا[١٠] . ولا إلى مسرح، ولديه يوم واحد فقط مخصص لسيركه الخاص: مهرجون في الأطلال الباطنية لحياته. لقد تزوج لا أدري كيف ولا لماذا، لديه أربعة أبناء وبنت واحدة، أما ابتسامته، عند انحناءته، من الجانب الآخر للعارض الخشبي نحو الجانب الذي يوجد فيه، فهي تنم عن سعادة عظيمة، بهيجة، رائعة. وهو لا يتظاهر، ولا مبرر لديه لكي يتظاهر، فإذا كان يحس بهذه السعادة فلأنه يمتلكها بالفعل.

وماذا عن النادل الكهل الذي يخدمني، والذي وضع أمامي كأس قهوة لعله الكأس المليون منذ امتهن وضع كؤوس القهوة على الطاولات؟ إنه يحيا نفس حياة الطباخ، مع فارق بالكاد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار : هي الفاصلة بين المطبخ الذي يوجد فيه أحدهما عن القسم الخارجي من المطعم الذي يشتغل فيه الثاني. هذا الكهل لديه ولدان فقط، لكنه يذهب مرات أكثر لزيارة غاليسيا. كما أنه يعرف لشبونة أكثر من زميله، ويعرف أوبرطو حيث كان هناك منذ أربع سنوات. أما من

حيث السعادة فما من فارق بينه وبين الأول.

أتفحص، باستغراب بانوراما هاتين الحياتين، فأكتشف، حالما أكون موشكاً على الإحساس بالرعب، والحزن، والحنق تجاههما، أنهما بالذات من ينبغي أن يحس بهذا الإحساس، هما بالذات اللذان يعيشان تلك الحياة. إنه الخطأ المركزي الجسيم للتخيل الأدبي: افتراض أن الآخرين هم نحن وأن عليهم أن يحسوا إحساسنا. لكن لحسن حظ الإنسانية، كل إنسان هو فقط من هو، إلا في حالات تعد محسوبة تحديداً على العبقرية.

الكل، في النهاية، يتحدد بالعلاقة مع ما يتحدد به. حادث عرضي صغير في الشارع، يجذب إلى الباب طباخ هذه الدار، يهبه من التسلية أكثر مما يمنحني تأمل أكثر الأفكار أصالة، وأكثر مما تمنحني قراءة أفضل الكتب وأكثر الأحلام اللامجدية غرابة. وإذا كانت الحياة رتيبة بصفة جوهرية، فذلك لأنه هو (الطباخ) قد تحرر من الرتابة بسهولة أكبر مني. الصواب ليس معه ولا معي. لأن الصواب ليس بجانب أي كان. غير أن السهولة موجودة حقاً بجانبه هو.

الحكيم هو من يضفي الرتابة على الوجود، بحيث يكتسب، حينئذٍ، كل حادث مهما صغر شأنه ميزة الأعجوبة. بعد الأسد الثالث تفقد مغامرة صياد الأسود كل إثارتها. بالنسبة إلى طباخي الرتيب الحياة يظل مشهد مصافحات في الشارع ممتلكاً، على الدوام، شيئاً من جاذبية قيامية متواضعة، من لم يغادر لشبونة قط يحس أنه مسافر صوب اللانهائي في الترام عندما يمضي إلى بمفيكة[١١]، وإذا ما أتيح له الذهاب إلى سينترا[١٢]، يحس أنه ذهب إلى المريخ. المسافر الذي قطع الأرض كلها فيما يتجاوز الخمسة آلاف ميل، لا يصادف الجديد، لأنه يصادف أشياء جديدة فقط؛ الجديد مرة أخرى، شيخوخة الجديد الدائم، لكن المفهوم المجرد للجديد يظل كامناً في البحر على الدوام.

بإمكان أي شخص، إذا كان ممتلكاً للحكمة الحقيقية، أن يستمتع بالمشهد الكامل للعالم، من خلال كرسي، بدون معرفة بالقراءة، بدون حاجة إلى الحديث مع أي كان، فقط بواسطة الاستخدام السليم للحواس وبروح لا تعرف كيف تكون حزينة.

إضفاء الرتابة على الوجود، لكي لا يكون رتيباً. تُثْفِيهُ اليومي، كيما يغدو أقل الأشياء أهمية مَجْلبةً لأكبر التسليات. وسط عملي اليومي، الشاحب، الرتيب واللامجدي. تباغتني رؤى هروبية. آثار حلمية لجزر قصية، احتفالات في حدائق حقب أخرى، مشاهد طبيعية أخرى، أحاسيس أخرى، أنا آخر، غير أنني اكتشفت، بين مقعدين، أن لو كان ذلك كله لي، لن يكون أي شيء منه من نصيبي. الباطرون باسكيس أنفع لي، في الواقع، من ملوك الحلم، شارع Los Doradores، يساوي أكثر بكثير مما تساويه كبريات الساحات في حدائق المستحيل. بامتلاكي شخص الباطرون باسكيس، أستطيع التمتع بحلم ملوك الأحلام؛ بوجودي في مكتب شارع Los Doradores أستطيع الاستمتاع بالمشاهدة الباطنية للمناظر الطبيعية التي ليس لها وجود. لكن لو امتلكت (بالفعل) ملوك الحلم. ماذا سيتبقى لي من أحلام؟ لو امتلكت المناظر الطبيعية المستحيلة، ماذا سيتبقى لي من مستحيل؟.

الرتابة، تماثل الأيام الخالية من أي بريق، انعدام الفارق بين اليوم والأمس، هو ما يبقى لي على الدوام، مع الروح المتيقظة لأجل الاستمتاع بالذبابة التي تسليني، عندما تمرق مصادفة أمام عيني،

بالقهقهة القادمة متقلبة من شارع غير محدد، بإحساس التحرر الفسيح لكون الساعة ساعة إقفال المكتب، بالاستراحة اللانهائية ليوم عيد.

بإمكاني أن أتخيل الكل، كل شيء، لأنني لا شيء، لو كنت شيئاً لما كان بإمكاني أن أتخيل. مساعد الحسابات بإمكانه أن يحلم بنفسه إمبراطوراً رومانياً ؛ ملك إنجلترا محرم عليه أن يكون، في الأحلام، ملكاً آخر مختلفاً عن الملك الذي هو إياه. الواقع لا يترك له مجالاً للإحساس.

عابر أقل

دخلت إلى صالون الحلاقة بنفس المتعة التي أجدها في ارتياد المنازل التي سبق لي ارتيادها من قبل. لديّ حساسية مقلقة تجاه ما هو جديد: لا أكون مرتاحاً إلا حيث ألفت أن أكون.

عندما استويت على المقعد. سألت الفتى الحلاق الذي كان يضع على عنقي قماشاً بارداً ونظيفاً ، عن حال رفيقه الكهل والذكي حلاق المقعد الأيمن، فقد كان مريضاً. سألته بدون أن يجبرني هو على طرح السؤال: المكان والتذكر قاداني إلى ذلك. « مات أمس »، أجابني بدون تنغيم الصوت، بينما أصابعه تنتهي من إدخال الثوب بين قذالي وياقة القميص. كل حماسي مات على الفور، تماماً مثلما غاب إلى الأبد حلاق المقعد المجاور. سرت البرودة في كل ما فكرت فيه. لم أقلْ شيئاً.

الاشتياقات ! لديّ منها الكثير حتى مما لا يمت إليّ بصلة بسبب قلق الهروب من الزمن وداء الحياة الملغزة. الوجوه التي اعتدت رؤيتها في شوارعي المعتادة، يعتريني الحزن حين لا أراها وهي ليست مني في شيء إن لم تكن رمزاً للحياة بكاملها.

العجوز ذو القماطين المتسخين الذي كان يتقاطع معي باستمرار في التاسعة والنصف صباحاً ؟ بائع اليانصيب الأعرج الذي كان يضايقني بلا فائدة ؟ العجوز المدور بالسيجار عند باب دكان الطبكيرية ؟ صاحب الطبكيرية الشاحب ؟ ماذا فعل الله بهم جميعاً ، هم الذين أصبحوا جزءاً من حياتي لأنني اعتدت رؤيتهم مراراً ؟ غداً سأختفي أنا أيضاً من شارع La Plata من شارع الـ Doradores ، ومن شارع Los Lenceros غداً أيضاً أنا ـ الروح التي تحس وتفكر، الكون الذي أنا إياه بالنسبة إليّ ـ أجل، غداً أنا أيضاً سأصبح ذلك الذي كف إلى الأبد عن المرور بهذه الشوارع، والذي سيستحضره الآخرون من خلال « ماذا سيكون منه؟ » وكل ما أفعل، كل ما أحس، كل ما أعيش، لن يكون سوى عابر أقل اختفى من الحياة اليومية لشوارع مدينة ما.

أستنطق الحياة

لم أطلب سوى القليل من الحياة، وحتى ذلك القليل رفضت الحياة منحي إياه. طلبت حزمة ضوء من الشمس، حقلاً [. . .]، القليل من السكينة مع قليل من الخبز، ألا تثقل عليّ كثيراً معرفتي بأنني موجود، وألا أطلب من الآخرين شيئاً وألا يطالبونني هم بأي شيء. هذه الرغائب ذاتها تم تجاهلها، كمن يتجاهل الظل لا بسبب الافتقار إلى المشاعر الطيبة، وإنما لكي لا يتحتم عليه أن يفك أزرار السترة [. . .].

أكتب، مكتئباً ، في غرفتي الهادئة، وحدي مثلما كنت، وحدي مثلما سأكون. وأفكر إن لم يكن صوتي، على ضآلة شأنه ظاهرياً ، يجسد جوهر آلاف الأصوات، والحاجة إلى التعبير لدى آلاف الحيوات، صَبْرَ آلاف الأرواح المذعنة مثل روحي، تحت شمس القدر اليومي، متشبثة بالحلم اللامجدي، والأمل الذي بلا بارقة. في هذه اللحظات ينبض قلبي نبضات أعلى بسبب إحساسي الحاد بنبضاته. أحيا زيادة على اللزوم لأنني أحيا على نحو أكبر وأعمق. أشعر في شخصي بقوة دينية، أشبه بنوع من الصلاة، أشبه بالشكوى. لكن ردّ الفعل ضدي من الذكاء يأتي.. أراني في الطابق الرابع من شارع الـ Doradores ، حالما أمارس الإحساس؛ أبصر فوق الورق نصف المكتوب، الحياة الباطلة الخالية من الجمال والسيجارة الرخيصة [. . .] فوق النُّشَّاف العتيق. هنا أنا، في هذا الطابق الرابع، أستنطق الحياة، صانعاً نثراً [. . .].

اشتياقات مجهولة

أن تعيش معناه أن تكون آخر. لو أحسستَ اليوم على نحو ما أحسستَ بالأمس فليس ذلك بإحساس، أن تُحسَّ اليوم بنفس ما أحسستَ به أمس لا يعد إحساساً: إنه يعني أنك تتذكر اليوم ما أحسست به أمس، وأنك اليوم الجثمان الحي لما كان بالأمس الحياة المفقودة.

باستقبالك ليوم جديد عليك بدفن كل ما يتعلق باليوم الذي سبقه، كن جديداً في كل صباح جديد، في عملية تجديد مستديمة لبكارة الإحساس: وهذا، وحده فقط، ما يستحق أن يمتلك بالنسبة إلى كينونتنا الناقصة.

هذه الصبيحة، هي الصبيحة الأولى في العالم. لم يسبق قط أن استقر هذا اللون الوردي ذو الصفرة الضاربة إلى البياض، هكذا على الوجه الذي تجابه به قرية الغرب مكتظة بالعيون المبرنقة السكون الآتي في النور المتنامي. هذه الساعة لم توجد قط، ولا هذا النور، ولا كينونتي هذه. غَداً ، كل شيء سيكون شيئاً آخر وما أراه أنا سيكون مرئياً بعينين أعيد تركيبهما، مفعمتين برؤية جديدة.

أيتها الجبال الشامخة للمدينة! العمارات الشاهقة المدعومة والمضخمة بمرتقيات شديدة الإنحدار، انزلاقات الأبنية المتراكمة بأشكال شتى مما ينسجه الضوء من ظلال وحرائق، أنتن هُنَّ اليوم؛ هذا اليوم، أنتنَّ أنا، لأنني أراكُنَّ ما [. . .] وأحبكن من الداخل مثل مركب يمر بجانب مركب آخر وهو يحمل حنيناً مجهولاً للمشهد.

١٩٣٠ / ٥ / ١٨

أخويات

بسبب ما أحدثه لديّ الإحساس الجسدي من ضيق وقلق قديم يصل أحياناً إلى حدّ الانفجار، لم آكلُ ، اليوم، جيداً ، ولا شربت ما أشرب دائماً ، في المطعم، أو في بيت الوجبات الطعامية، الذي في طابقه الوسيط تتأسس استمرارية وجودي. ولأن النادل لاحظ، عند خروجي، أن قنينة النبيذ تُركتْ مملوءة للنصف، فقد اتجه نحوي قائلاً: «إلى اللقاء، يا سيد سوارش، أتمنى أن تتحسن حالتك».

ما إن تلفظ بهذه العبارة البسيطة حتى انفرجت روحي كما لو أن غيوماً في سماء أزيحت فجأة بفعل الريح، وحينئذٍ اكتشفت ما لم أتمكن قط من اكتشافه بوضوح : ذلك أنني وجدت في نُدُل المطاعم أو المقاهي هؤلاء، في الحلاقين، في حمالي الزوايا لطافة تلقائية، وطبيعية، لا أستطيع أن أزهو بتلقيها ممن يعاملونني بكثير من الحميمية.

إن للأخوة لطافتها.

بعض يحكمون العالم، آخرون هم العالم. بين مليونير أمريكي له أموال في إنجلترا أو سويسرا، وبين الرئيس الاشتراكي لأي قرية، لا توجد فوارق في الكيف بل في الكم. أسفل [. . .] هؤلاء، نحن، الخاملون، المؤلف المسرحي الغافل وليم شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، المتشرد دانتي أليجيري، الحمال الذي قام بخدمتي أمس، الحلاق الذي يحكي لي النوادر، النادل الذي تصرف معي بأخوية متمنياً لي ذلك التحسن لأنني شربت فقط نصف قنينة نبيذ.

طفل في السيرك

مرات كثيرة، أُحِسُّني رجلاً ، تحت تأثير السطحي والمصطنع. حينئذٍ أحيا طافياً ، بفرح وصفاء، ويصبح التوصل بالأجرة ثم التوجه إلى البيت مفرحاً بالنسبة إليّ. أحسّ الزمن بدون أن أراه، وأحبُّ كل ما هو عضوي. حينما أمارس التأمل، أعجز عن التفكير. أحب الحدائق كثيراً هذه الأيام.

لا أدري ما يحويه الجوهر الباطني للحدائق العامة، من عجيب وبئيس، مما لا يمكن أن أحسه جيداً إلا عندما أحس جيداً بنفسي. الحديقة، أي حديقة تختصر الحضارة بكاملها، إنها تعديل غفل للطبيعة. هنالك النباتات. لكن ثمة شوارع. أشجار تنمو، ثمة مقاعد تحت الظل. في الاصطفاف المرتد نحو الجهات الأربع للمدينة، توجد الساحة وحدها، المقاعد الكبيرة ممتلئة دائماً تقريباً بالناس.

لا أبغض تناسق أزهار الأحواض، أبغض، على العكس، الاستعمال العمومي للأزهار. لو أن الأحواض وجدت في حدائق مغلقة، لو أن الأشجار نمت في زوايا إقطاعية، لو أن المقاعد لم تكن في ملك أحد، لوجدت تسليتي في التأمل اللامجدي للأزهار. هكذا هي الحدائق المنسقة بلا فائدة في المدينة بالنسبة إليّ هي عبارة عن أقفاص لا تمتلك فيها التلوينات العفوية للأشجار والأزهار فضاء، ولا مكاناً تنحبس فيه. وحيث الجمال الطبيعي نفسه مجرد من الحياة التي ينتمي إليها.

لكن ثمة أيام يغدو فيها هذا المشهد منتمياً إليّ ، فأدخل إليه مثل ممثل صامت في مأساة فكاهية. في تلك الأيام أكون تائهاً ، لكنني، على الأقل أكثر سعادة، على نحو من الأنحاء. يبدو لي حينما ألهي نفسي، أنني أملك بالفعل بيتاً . مأوى آوي إليه وأنني شخص سوي. مدخر لغاية ما، أنظف بدلة أخرى وأقرأ صحيفة بكاملها.

بيد أن الوهم لا يدوم طويلاً مثلما يحدث في الليل. فلون الأزهار، ظل الأشجار تناسق الممرات والأحواض تضمحل وتتقلص. ينفتح بغتة من وراء خطأ اعتقادي برجولتي، كما لو أن ضوء النهار كان ستارة مسرح أخفي لأجلي، المشهد الأعظم للنجوم. وحينئذ أنسى بالرؤية، المقعد الأمامي وأنتظر ظهور الممثلين الأوائل بانتفاضة طفل في السيرك.

حُرٌّ أنا وَضائع.
أحس بزكام وحُمَّى، أنا أناي. (١٣).

١٢ / ٤ / ١٩٣٠.

فكرة السرعة

للإحساس بلذة ورعب السرعة لا أحتاج إلى سيارات سريعة ولا إلى قطارات سريعة. حسبي الترام وقدرة التجريد الرهيبة التي أمتلكها وأرعاها.

أعرف، دخل ترام متحرك، وبفضل موقف تحليلي ثابت وخاطف، كيف أفصل فكرة الترام عن فكرة السرعة، فصلاً تاماً عن كل ما سواها، حتى أحولها إلى شيئين ـ واقعيين مختلفين. بعدئذٍ، يمكنني أن أحسني متتبعاً، ليس داخل الترام، وإنما داخل سرعته ـ الخالصة. ولو شئت، بالمصادفة الحصول على هذيان السرعة القصوى أستطيع نقل الفكرة إلى المحاكاة المحضة للسرعة مضاعفاً إياها وفق هواي، أو مقللاً منها، موسِّعاً إياها إلى مدى يتجاوز السرعات الممكنة للقطارات.

إن التعرض لأخطار واقعية يؤدي، بالإضافة إلى ما يثيره فيّ من رعب، إلى تشويش التيقظ الكامل لأحاسيسي، مما يضايقني ويفقدني تشخصني.

لا أمضي أبداً إلى حيث يوجد الخطر، لديّ خوف تجاه ضجر الأخطار.

الغروب هو ظاهرة ذهنية قبل كل شيء.

كم من قياصرة كنت

الحياة بالنسبة إلينا هي ما نتصوره فيها. حقل الفلاح وهو الكل بالنسبة إليه، هو بمثابة إمبراطورية. الإمبراطورية بالنسبة إلى القيصر غير كافية. وهي ليست بأكثر من حقل. المسكين يمتلك إمبراطورية؛ العظيم يمتلك حقلاً. في الحقيقة، نحن لا نملك أكثر من أحاسيسنا الخاصة، ففيها، إذن، وليس فيما تراه هي، علينا أن نوطد واقع حياتنا.

/ هذه الخواطر لم تأت بمناسبة معينة /

لقد حلمت كثيراً، أنني متعب من وجودي حالماً، ولست متعباً من فعل الحلم. لا أحد يتعب من الحلم، أن نحلم هو أن ننسى، والنسيان لا يحزن وهو نوم بلا أحلام نكون فيه مستيقظين. في النوم حققت كل شيء. كنت أستيقظ أيضاً. لكن ما أهمية ذلك؟ كم من قياصرة كنت! كم من مشاهير وكم من مساكين! القيصر، وقد أنقذ من الموت، بفضل أريحية أحد القراصنة، يرسل منقذه إلى الصلب، بعد اعتقاله إثر بحث طويل عنه. نابليون، يوصي، في الوصية التي أعدها في سانتا هيلينا، بتركة لمجرم حاول اغتيال ولينغتون. أوه لجلائل الأعمال المعادلة لروح الجَارَة الحَوْلاء، أوه للرجال العظام، رجال طبَّاخة العالم الآخر! كم من قياصرة كنتُ، وما زلت أحلم أن أكون.

كم من قياصرة تقصَّمْتُ، لكن قياصرة الحلم لا قياصرة الواقع. إمبراطورياً حقاً كنت كلما حلمت، لذلك لم أكن شيئاً قط، جيوشي تكبدت الهزيمة، لكنها هزيمة رخوة فما من أحد مات. لم أفقد

رايات . لم أحلم حتى نقطة الوصول إلى امتلاك جيش، حيث تظهر تلك الرايات ذات الزاوية الحلمية أمام بصري . كم من قياصرة صرت، هنا بالذات، في شارع ألدورادوريس . والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الـ دورادوريس والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الـدور / دوريس Doradores ، أي الواقع، معرفتهم .

أرمي بعلبة الثقاب الفارغة إلى الهاوية، حيث الشارع الأبعد من مسند نافذتي الذي بلا جلية معمارية . أنهض من الكرسي وأصيخ السمع . وبجلاء، تُصدر علبة الثقاب صوتاً ـ كما لو كان يعني شيئاً في الشارع شبه الخالي . لا صوت البتة بَعْدُ ، عدا أصوات المدينة بكاملها . أجل، أصوات مدينة يوم أحد تام . . .

يا لقلة ما يمثله، في العالم الواقعي، حامل أفضل التأملات . الوصول متأخراً لتناول الغداء، نفاد أعواد الثقاب، إلقائي بالعلبة إلى الشارع، الوضع الذهني السيء بسبب الأكل في وقت غير مناسب، كون الأحد وعداً هوائياً بغروب سيء، كوني لا أحد في العالم هو الميتافيزيقا برمتها .

لَكِنْ كَمْ من قياصرةٍ كنتُ! .

١٩٣٠ / ٦ / ٢٧

« أنا بحجم ما أراه ! »

أعاود بلا اكتراث قراءة تلك العبارات البسيطة لـ كاييرو [١٤] متلقياً ما أحسه كإلهام وتحرير للنفس، ضمن المرجعية الطبيعية للتأثير الخاص لصغر حجم قريته . من هنالك . ولأنها صغيرة، يقول كاييرو، يمكن أن يُ ـرى العالم أكثر مما يرى من المدينة؛ لذلك كانت القرية أكبر حجماً من المدينة .

« لأنني بحجم ما أراه
لا بحجم قامتي »

عبارتان كهاتين، متناميتان خارج إرادة التعبير التي أوجدتهما، تُنقيانني من كل الميتافيزيقا العفوية التي أضيفها إلى الحياة . بعد قراءتهما، أَقتربُ من نافذتي المطلة على الشارع الضيق، أنظر إلى السماء الهائلة، وإلى النجوم الكثيرة، وأنا حرّ مثل إشراقة مجنحة يرجف اهتزازها سائر جسدي .

« أنا بحجم ما أراه ! » كلما فكرت في هذه الجملة بكل تنبهي العصبي، بدت لي موجهة إلى إعادة بناء أعلى للكون . « أنا بحجم ما أراه ! » يا لعظمة هذا التموقع الذهني الذي ينتقل من بئر الانفعالات العميقة إلى النجوم العالية المنعكسة فيه، والموجودة بداخله، بشكل من الأشكال .

والآن، وأنا واعٍ بالطريقة التي أرى بها الأشياء، أَنظر إلى الميتافيزيقا الموضوعية لكل السماوات بثقة تمنحني الرغبة في أن أموت مغنياً . « أنا بحجم ما أراه ! » . ويشرع غموض القمر المضيء الذي هو الآن في ملكيتي كلية، في تعكير زرقة الأفق نصف المسودة بالغموض .

لديّ رغبة في أن أَرفع ذراعي وأصرخ منادياً بأشياء ذات وحشية مجهولة، وأوجه الكلمات للخبايا

العليا، بانياً شخصية جديدة شاسعة للفضاءات الكبيرة للمادة الفارغة.

لكنني أنكبح فأهدأ، «أنا بحجم ما أراه !» عبارة ستبقى هي الروح بتمامها بالنسبة إليّ. إليها ترتكز كل أحاسيسي، وعليَّ أنا من الداخل، مثلما على المدينة، من الخارج، تنزل السكينة الملغزة من النور الناصع للقمر الذي يبدأ في الاتساع مع نزول المساء.

١٩٣٠/٣/٢٤

قرابات باطنية

من الانشغالات الثابتة المستحوذة على تفكيري سعيي إلى أن أفهم حقيقة وجود أناس غيري، وكيف أن هناك أرواحاً غير روحي، وضمائر غريبة عن ضميري الذي لا بد، باعتباره وعياً، أن يكون متفرداً ـ وفق تصوري ـ. أدرك جيداً أن الرجل الموجود أمامي، والمتحدث إليّ بكلمات مماثلة لكلماتي، والمستخدم لإشارات شبيهة بتلك التي أستخدمها أو يمكن أن أستخدمها، هو شبيهي بشكل من الأشكال. نفس الشيء، مع ذلك، يحدث لي مع الرسوم التي أحلم بها، مع الشخوص التي أراها في الروايات، مع الشخصيات الدرامية التي تمرّ أمامي في المشهد المسرحي من خلال الممثلين الذين يجسدونها.

لا أحد، فيما أفترض، يوافق حقاً على الوجود الواقعي لشخصية أخرى مطابقة له. يمكن أن يقبل بأن تكون تلك الشخصية على قيد الحياة، بأن تحسَّ وتفكر على نحو مطابق له، لكن سيبقى هناك عنصر اختلاف مجهول، على الدوام، وتباين مجسَّدٌ أكيد. ثمة وجوه من أزمنة سالفة، صور أرواح في كتب، هي بالنسبة إلينا واقعٌ أكبر من تلك اللامبالاة المجسدة التي تتحدث إلينا من أعلى العوارض الخشبية في الحانات، أو تنظر إلينا مصادفة في التراموايات، أو تلامسنا مارةً، في المصادفة الميتة للشوارع. الآخرون ليسوا بالنسبة إلينا بأكثر من مشهد، دائماً تقريباً، خَفيٍّ لشارع معروف.

لديَّ قرابة انتماء باطنية مع وجوه معينة موصوفة في كتب، ومع صور تعرفتُ عليها مطبوعةً، أكبر وأقوى مما لديَّ مع كثير من الأشخاص ممن ندعوهم واقعيين، ممن ينتسبون إلى اللاّجدوى الميتافيزيقية المدعوة لحماً وعظماً. وبالفعل فعبارة «لحم وعظم» نعت مناسب لهم: فهم يبدون أشياء مقطوعة موضوعة على السطح المرمري لدكان لَحَّام، موتى ينزفون على هيأة أحياء، كَوارِع وأضلاع القدر.

لا أخجل من الإحساس على هذا النحو لأنني رأيت الجميع يفعل ذلك. وما يبدو من احتقار بين رجل وآخر، ومن لا اكتراث يسمح بأن يَقتل أناس بدون إحساس بأنهم يَقتلون، كما يحدث بين المجرمين، أو بدون تفكير في أن ثمت قتل، كما يجري بين الجنود، فذلك لأنْ لا أحد يعير انتباهاً للفعل ذاته. يبدو أن من العسير إدراك أن للآخرين أيضاً أرواحاً خاصة بهم.

في أيام، في ساعات معلومة، محمولة إليّ عبر نسيم أجهل كنهه، مفتوحة لي انفتاحة ما لست أدري من أبواب، أحسُّ فجأةً بأن صاحب دكان في زاوية الشارع كائن روحاني، وأن صَبِيَّة الدكان التي تنحني في هذه اللحظة قرب الباب، على كيس البطاطا، هي بالفعل، روح قادرة على أن تتألم.

عندما أخبروني أمس بانتحار صاحب الطبكيرية، لم أصدق، يا للمسكين كان موجوداً بدوره! لقد تناسيناه، جميعاً نحن، [. . .] جميعنا نحن الذين عرفناه بنفس طريقة كل الذين لم يعرفوه. غداً سوف ننساه بشكل أفضل. لكن الروح كانت موجودة لديه، كانت لديه روح، فلماذا قتل نفسه، أبسبب الحب، الضجر؟ لا شك. . . لكن بالنسبة إليّ ، كما بالنسبة إلى الناس جميعاً ، أحتفظ منه فقط بذكرى ابتسامة بلهاء من أعلى سترة نسيج وسخة، متفاوتة من الكتفين. هذا ما أحتفظ به من الرجل الذي انتحر، لشدة ما عانى من أحاسيس ذلك أنه لا ينبغي، في النهاية، أن يقتل أحد نفسه بسبب شيء آخر غير هذا. . . فكرت ذات مرة، لدى شرائي سجائر من دكانه أنه سيغدو أصلع في النهاية في القريب العاجل. لم يجد الوقت الكافي ليصبح أصلع. تلك واحدة من الذكريات التي بقيت لديّ عنه. فأي ذكرى سأحتفظ بها عنه، طالما أن هذه، بعد كل شيء، لَيْسَ ت بذكراه هو، وإنما هي من اختراع تفكيري الخاص؟.

أمتلك فجأة، منظور الجثة، منظور التابوت الذي وُضعتْ فيه في القبر الغَيْريِّ الذي كان ينبغي أن تُحمَلَ إليه. وأرى، على حين غرة، أن صاحب الطبكيرية، كان بالسترة الملْويّةِ ، يُمثّل الناس جميعاً. تلك كانت لحظةً وحسب. الآن، بالطبع، أنا حي وهو قد مات، لا أكثر ولا أقل.

أَجَلْ ، الآخرون لا وجود لهم. . فلأجلي بالذات ينشر هذا الغروب، بثقل مجنَّ ح، ألوانه الضبابية والقاسية . لأجلي، يرتعش النهرُ الكبير، تحت الغروب، بدون أن أرى جريانه. لأجلي أنا شُيِّدتْ هذه الساحةُ المفتوحة على النهر بحركة مدّه وجزره الوشيكة. أَوَ تَمَّ اليوم دفنُ صاحب بالطبكيرية في المقبرة العامة؟ غروبُ هذا اليوم ليس موجَّهاً إليه. لكنه، وبدون أن أفكر في الأمر أو أرغب فيه، قد كفَّ كذلك عن أن يكون موجهاً إليّ.

١٩٣٢ / ١ / ٢٦

رماد على السرير

اليوم استيقظت باكراً جداً ، في لحظة مشوَّ شة، ثم نهضت من السرير على الفور تحت ضغط ضجر غامض لم يتمخض عَنْ أيِّ حلم، ولا كان صنيعة أي تجربة واقعية. كان ضجراً مطلقاً وتاماً ، لا بد أنه كان مستنداً إلى شيء ما. في العمق المعتم لروحي، هناك قوى لا مرئية مجهولة شرعت في قتال كانت كينونتي ساحته، وأنا كلي كنت أرتعش للقتال المجهول. قرف فيزيقي من الحياة بكاملها ولد مع استيقاظتي. رُعْبُ ضرورةِ مواصلة العيش نهض معي من السرير. خاوياً بدا لي كل شيء وتولَّد لديّ الانطباع البارد بأن ليس ثمة أي حل لأي مشكلة كانت.

قلق فظيع جعل أصغر حركاتي ترتجف. أحسست بالارتياب والخوف من أن أفقد صوابي، لا جنوناً . جسدي كان صرخة دفينة، وقلبي ظل يخفق كما لو كان يتكلم.

حافياً قطعتُ بخطوات واسعة ومصطنعة، حاولت عبثاً أن أجعلها مختلفةً ، المسافة الطولية الصغيرة للغرفة، والمسافة القطرية الفارغة للغرفة الداخلية التي يوجد بابها في الركن المؤدي إلى ممر المنزل، بحركات غير متماسكة وغير مضبوطة، لامست الفراجين الموضوعة فوق الخزانة. دحرجت أحد

الكراسي، وَبيَديّ دفعت آخر ليترنَّح على الحديد الحاد لقدم السرير الإنجليزي. أشعلت سيجارة. دَخَّنْتُ ها بلا وعي، وفقط عندما رأيت رماداً يسقط على رأس السرير ـ كيف؟ كما لو لست الذي وضعه هناك؟ ـ أدركت أنني كنت ممسوساً ، أو ما يشبه ذلك، وأن وعيي الذي يفترض تملكي له، قد غاص في الهاوية.

استقبلت بشارة النهار، بالقليل من الضوء البارد الذي يمنح الأفق المنجلي زرقةً بيضاء، مثل قبلة امتنان للأشياء، لأنَّ ذلك الضوء، ذلك النهار الحقيقي، حرَّ رني، حرَّ رني مما لستُ أدري، منحني قوةَ شيخوخةٍ مجهولة، باتجاه احتفالات طفولة زائفة، وحُمَّ ى الراحة المتسولة لحساسيتي الطافحة. آه، أي صبيحة هذه التي توقظني على بلادة الحياة، وحنانها الأكبر! إنني أبكي تقريباً ، ناظراً إلى الشارع الضيق العتيق ينجلي أمامي وتحتي، وعندما تكشف الستاراتُ الحديدية لدكان الزاوية ذلك الكستنائيَّ القذرَ في الضوء المرتشح بعض الشيء يُحِسُّ قلبي بانشراح حكاية عن جنيات حقيقية. ويبدأ في امتلاك وثوقية عدم الإحساس.

من أي صباح هذه المرارة؟ وأيُّ ظلال تتناءى؟ وأي غوامض تكمن هناك؟ لا شيء : ضجيج الترام الأول مثل فوسفور سيضيء عتمة الروح، والخطوات العالية لأول مارٍّ هي الواقع الملموس الذي يقول لي، بصوت صديق، لا تكن هكذا.

من يعيش مثلي

رتابة حياتي الخامدة الشبيهة بغبار أو قذارة متجمعة على سطح انعدام التغيير تبدو لي في أمسِّ الحاجة إلى التنظيف.

هكذا مثلما نغسل الجسد، علينا أن نغسل المصير، أن نغير حياتنا مثلما نغيّر الثياب. لا لننقذ الحياة، مثلما نأكل وننام، ولكن لأجل تكريس ذلك الاحترام المستقل عنّا والذي بالإمكان تسميته تخصيصاً : نظافة.

ليست القذارة لدى كثيرين قابلية إرادية، وإنما هي بمثابة استخفاف من الذكاء. كما أن الخمود والحيوية لدى الكثيرين ليسا شكلاً من أشكال الرغبة في الحياة، أو تنازلاً طبيعياً عن عدم الرغبة فيها، وإنما هو انطفاء للذكاء في أنفسهم، وتعبير تهكمي تلقائي عن المعرفة.

ثمة قذرون تشمئز منهم قذارتهم الخاصة، لكنهم لا يتخلَّوْن عنها لنفس ذلك الحد من الإحساس الذي يجعل الشخص المرعوب عاجزاً عن تلافي الخطر. ثمّ ة قذرون بحكم المصادفة مثلي، ممن لا يبرحون التفاهة اليومية بفعل نفس جاذبية ذلك العجز ذاته، إنها طيور مفتتنة بغياب الأفعى؛ ذباب يطير عبر الجذوع بدون أن يرى شيئاً حتى يجد نفسه في المتناول اللزج لِلسان الحرباء.

هكذا أنقل رويداً رويداً لاوعيي الواعي، على غصن شجرة الاعتيادي. هكذا أنقل قدري السائر على قدمين، لأنني عاجز عن السير، هكذا أنقل زمني المتواصل، لأنني غير قادر على مواصلة أي شيء. لا ينقذني من الرتابة سوى هذه التعليقات التي أخطها. يسرّني توفر زنزانتي على واجهات زجاجية من داخل قضبان النافذة، وبأحرف كبيرة أكتب على الزجاج، في غبار الضروري، إسمي،

أكتب التوقيع اليومي لكتابتي مع الموت.

مع الموت ؟ لا، ليس مع الموت. من يعيش مثلي لا يموت : ينتهي، يذوي، يتيبس. المكان حيث كنتُ سيبقى خالياً منه هو، في الشارع الذي عَبَرْته هو الذي سيبقى غير مرئي هناك، المنزل حيث أقمتُ يقطنه اللاَّ ـهُ و. هذا كل شيء، ونُسمِّيه لا شيء؛ لكن ولا حتى تراجيديا النفي هذه بإمكاننا تقديمها مصحوبة بالتصفيق، إذ لا نعرف ماذا تكون إن لم تكن هباءً ، نباتيات للحقيقة مثلما للحياة، الغبار المتجمع بكثرة من داخل كما من خارج الزجاج، أحفاد القدر وربائب الله، الذي تزوج الليلة السرمدية عندما تَرمَّلَتْ هي من العماء الذي منه ولدنا نَحْنُ.

(بعد ١٩٢٣)

بفضل الذكرى

الشمُّ حاسة بصر شاذ. يستدعي مشاهد عاطفية بواسطة رسم مباغت يأتي من اللاوعي. مرات كثيرة أحسستُ بهذا. أمُرُّ بأحد الشوارع. لا أرى شيئاً ، أو بالأحرى، أرى كل شيء، أرى كما يرى كل الناس. أعرف أنني أمضي عبر شارع موجود بالفعل بجانبين مكونين من منازل مختلفة ومشيّدة لأجل كائنات بشرية. أمُرُّ بأحد الشوارع. من إحدى المخابز تنبعث رائحة تبعث على الغثيان لحلاوتها : وإذا بطفولتي تنبعث من أحد الأحياء البعيدة، وإذا بمخبزة أخرى تنبعث من مملكة الجِّنيات التي هي كل ما فقدناه. أمُرُّ بأحد الشوارع أَشُمُّ فجأةً ، فواكه اللائحة المائلة للدكان الضيق؛ فإذا لحياتي القصيرة في البادية، لا أدرى الآن متى ولا كيف، أشجار في نهاية الممر، مع طمأنينة تُفْعم قلبي وقد أَضْحَى طفلاً على الدوام. أمُرُّ بأحد الشوارع، فتُبَلبِل لمني، على غير توقُّع مني، رائحة منبعثة من درج بائع كُتُب : أوه ثيساريو [١٥] ، ها أنت تظهر أمامي، وها أنا سعيد في النهاية لأنني رجعتُ ، بِفضل الذكرى، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

غيوم ...

غيوم ... اليوم أمتلك وعياً بالسماء، إذ منذ أيام لم أنظر إليها لكنني أحسها، عائشاً في المدينة وليس في الطبيعة التي تحتويها. غيوم... غيوم... هي اليوم الواقع المركزي وهي تشغل بالي كما لو أن استخدام السماء كان من المخاطر الكبرى المحدقة بمصيري. غيوم... تمرّ من العارضة إلى الـCastillo [١٦] ، من الغرب إلى الشرق، في صخب متفرق وَعَ ار، رثَّةً تبدو في طليعةِ ما لستُ أدري؛ بعضها نصف ـأسود، نعم، وأكثر ابطاء، تتأخر لتصبح مكنوسةً من قبل الريح الجسور، سوداء من بياض قذِ ر، نعم، كما لو كانت ترغب في البقاء، تسودُّ من القدوم أكثر مما من الظل الذي تشرعه الشوارع كفضاء مصطنع بين الخطوط المغلقة للمنازل.

غيوم... موجود أنا بدون أن أعرف أنني موجود وسأموت بدون أن أريد الموت. إنني الفاصل بين ما أنا إياه وما لست إياه، بين الحلم وبين ما صنعته الحياة بي، وأنا القياس المجرد والجسدي بين أشياء ليست في حقيقتها بشيء، لكوني كذلك لا شيء. غيوم... لَكَمْ ثَمَّةَ من لا طمأنينة في حالات

إحساسي، كَمْ ثمتَ من غَمّ في تفكيري، كَمْ مِنْ لا جدوى في رغباتي! غيوم... غيوم تَمرُّ على الدوام، بعضها يبدو كبيراً، لأن المنازل ما كانت لتسمح برؤيتها لو كانت أقل حجماً مما تبدو، وهي في طريقها لاحتلال السماء بكاملها؛ بعض آخر بحجم غير واضح، لعلهما غيمتان يمكن اجتماعهما في واحدة ستنشطر إلى اثنتين، بدون أي اتجاه في الهواء العالي فوق السماء المتعبة؛ ثمت غيوم أخرى صغيرة ما تزال، تبدو لُعَباً لأشياء..، كرات مختلفة للعبة باطلة، باردة، باتجاه ناحية عزلة كبرى.

غيوم... أستنطق ذاتي جاهلاً إياها. لم أقم بأيِّ عمل نافع ولن أقوم بما يمكن تبريره. لقد استهلكتُ حصتي من الحياة التي لم أضيعها في الاعتراض الغامض على اللاشيء، محوِّلاً إلى شعر نثري الأحاسيسَ غير القابلة للنقل والتي بواسطتها أجعل الكون المجهولَ كونيَ الخاصَّ. لقد ضقت ذرعاً بي، موضوعياً وذاتياً. ضقتُ ذرعاً بكلِّ شيء، وبكل الكل. غيوم... الكل غيوم... فوضى من الأعالي، أشياء هي اليوم وحدها واقعية بين الأرض الفارغة والسماء العديمة الوجود؛ ضباب مكثف بتهديدات ذات لون مغيّب. قِطَع قطن وَسِخة في مستشفى ليس له جدران. غيوم... هي مثلي، عبور مشَّوهٌ بين السماء والأرض، بمذاق زخم لامرْئي، مرعدٍ أو غير مرعد، تُزيِّنُ بالأبيض أو تُعتِّم بالأسود، خيالات المدى، بعيداً عن صخب الأرض وسكينة السماء. غيوم... غيوم تمر، تواصل المرور دائماً، ستمرّ دوماً مواصلة مرورها، في التفاف متقطع لخصلات معكرة، في تمدد مُنْبَتٍّ لسماء مزيفة متفككة.

١٩٣١ / ٩ / ١٥

تراجيديا غامضة

لقد ذهب اليوم / يقولون /، بصفة نهائية، خادم المكتب إلى مسقط رأسه، ذلك الرجل نفسه الذي اعتدتُ أن أعتبره جزءاً من هذا البيت الإنساني، وَإذاً، جزءاً مني ومن العالم الذي هو عالمي. لقد مضى، عند التقائنا في الممر، بمصادفة منتظرة للوداع المنتظر، عانقتُه بخجل، وقد امتلكتُ ما يكفي من شجاعة لأمنع نفسي من البكاء الذي كانت عيناي المتقدتان ترغبان فيه من دوني.

ما من شيء كان ملكاً لنا، ولو فقط عبر أحداث المعايشة أو النظر العابرين، إلا وأصبح جزءاً منا لأنه كان شيئاً بحَوْزتنا. الذي مضى اليوم، إذن، إلى أرض غَاليسيّة أجهَلُها، ليس خادم المكتب: بل قطعة حيوية، بَصَرية وإنسانية، من ماهيتي الإنسانية. اليوم تَمَّ الانتقاص مِنّي. لم أعد نفس شخص كل يوم. خادم المكتب مضى.

كل ما يحدث في المكان الذي نعيش فيه، إنما يحدث فينا نحن، كل ما ينتهي فيما نراه إنما فينا نحن ينتهي أو يزول. كل ما كان، لو عشناه كما كان، فمنا نحن انتزع بالذات عندما انقضى ومضى. لقد مضى خادم المكتب بلا رجعة مضى.

أُحِسُّ بالمكتب العالي أكثر ثقلاً، أكثر شيخوخة، أقلَّ مُطاوعة وأشرع في مواصلة كتابة أمس. غير أن تراجيديا اليوم الغامضة، تَقطعُ، بتأملات يجب أن أسيطر عليها بالقوة، السيرَ التلقائيَّ للكتابة كما ينبغي. لا أملك شجاعة لمواصلة العمل، إلا لأنني أستطيع، بفتور نشيط، أن أكونَ عبداً لذاتي نفسها. خادم المكتب مضى إلى غير رجعة.

أجل، غداً أو في يوم آخر، أو متى شاء جرس الموت أو الحياة المجرد من الصوت، كذلك أنا سأكون من لم يَعُدْ مَوْجُوداً هنا، سأكون الكتابَ المنقولَ المُستَغْنى عنه الذي سَيُحتفَظُ به في الخزانة الواقعة أسفل السُّلَّم. أجل، غداً ، أو عندما يقولها القدر، ستكون هناك نهاية حتمية لكل ما تظاهر من داخلي بأنه أناي. أسَأمضي إلى مسقط رأسي؟ لا أدري إلى أين سأمضي؟ اليوم، التراجيديا تبدو مرئيّةً ... يا إلهي، يا إلهي، خادم المكتب إلى غير رجعة مضى.

١٩٣١ / ١٢ / ١٦

خيط حرير

الكلُّ باطل ولا معقول. هذا يكرس حياته ليجني مالاً يَذْخَرُه، وليس لديه أبناء يورثهم ذلك المال ولا أملاً في سماء تحفظ له قيمته. وذاك يكرس مجهوده للحصول على الشهرة ليموت بعدئذٍ، بدون أن يؤمن بتلك الاستمرارية الحياتية التي تجعله يتعرف على شهرته. وآخر يستهلك حياته للحصول على أشياء لا تروقه في الواقع (...).

هنالك مَنْ يقرأ لأجل المعرفة اللامجدية. هنالك من يستمتع بالعيش اللامجدي أيضاً.

في أحد الترامواياتِ، أمضي، متفحصاً على مهل، وفق عادتي، كل تفاصيل الأشخاص الموجودين أمامي. التفاصيل، بالنسبة إليّ، أشياء، أصوات، جمل. في لباس هذه الفتاة التي توجد قبالتي، أُحِيلُ اللباس إلى القماش الذي صنع منه، والشغل الذي صنعوه به ـ أراه كلباس لا كقماش ـ والتطريز الخفيف حول الجزء المحيط بالعنق الذي يفصلني عن خيط الحرير الذي طُرِّز به، والشغل الذي تم تطريزه. وعلى الفور، ومثل كتاب أولي في الاقتصاد السياسي، امتدَّتْ أمامي المصانع والأشغال؛ المصنع حيث صنع القماش؛ من لون أكثر قتامة، الخيط الحريري الذي أحيط موضعه بجانب العنق بأشكال صغيرة موشَّاة؛ وأرى فروع المصانع، الآلات، العمال، الخياطات. عيناي المتحولتان إلى الداخل تنفذان إلى المكاتب، أرى الوكلاء يحاولون التظاهر بالهدوء، في المكتب، أواصل حسابات هذا كله.

أرى، هنالك، الحيوات المنزلية لمن يحيون حياتهم الإجتماعية في تلك المصانع وتلك المكاتب... العالم أجمع يتمدد أمام عيني فقط لأنني أمتلك أمامي تحت العنق الأسمر لِوَجْهٍ ما هنالك في الجانب الآخر، تطريفةً خضراء قاتمة على الأخضر الناصع لثوب ما.

كل الحياة الإجتماعية مضطجعة أمام عيني.

أتوجّس، فيما وراء هذا كله، غراميات، حميميات، أرواح كل الذين يعملون كي تكون هذه المرأة أمامي في الترام، حاملة، حول عنقها الفاني، الرثاثة الملتوية لخيط حرير أخضر قاتم منسوج من اخضرار أقلّ قتامة.

أصاب بدوار، مقاعد الترام، المصنوعة من تبن مشبَّك دقيق، تأخذني إلى جهات قصية، تضاعفني إلى صناعات، وعمال، منازل عمال، حيوات، وقائع، وكل شيء.

من الترام أخرج منهكاً وَمُسْرَنِماً. لقد عشت الحياة بكاملها.

١٩٣١

ترجمة : المهدي إخريف

هوامش :

(١) أحد شوارع لشبونة .

(٢) كاتب برتغالي .

(٣) سوارش الآن يشتغل منصب معاون حسابات .

(٤) José valentin Fiolho (١٨٥٧ – ١٩١١) كان كاتب يوميات مشهوراً وقصاصاً برتغالياً متميزاً تأثر بالتيار الطبيعي وبالأفكار التقدمية لعصره .

(٥) Vieira : الأب Antonio Vieira أنطونيو بييرا (١٦٠٨) توفي في البرازيل في نهايات القرن ١٧ ، فضلاً عن كونه عرف كخطيب كبير فقد ألف كتاب Clavis Prophetarum الذي أفاد منه بيسوا في كتاباته السيبستيانية .

(٦) فضلت الإبقاء على هذه الأمثلة عن استعمالات فعل الكينونة الإسباني : ser كما هي لتعذر الوفاء بالمقصود منها في حال ترجمتها إلى العربية .

(٨) شارع متفرع عن شارع كبير تكررت الإشارة إليه هو Los Doradores (المترجم) .

(٩) لعل المؤلف يشير إلى منطقة MINO البرتغالية .

(١٠) Rotonda : هو الاسم الشعبي لساحة المركيز De Pombal وهي قريبة جداً من المطعم المعني بالحديث وإذن فالمبالغة هنا من المؤلف ذات قصد تهكمي واضح .

(١١) Bimfica : كان وقتها حياً نصف مأهول على أطراف لشبونة ، قبل أن يندمج فيما بعد في الفضاء العمراني للمدينة .

(١٢) مدينة أثرية قريبة من لشبونة .

(١٣) Soy yo .

(١٤) البرطو كابيرو : النديد الأول الذي ابتكره بيسوا عام ١٩٠٨ توفي سنة ١٩١٥ .

(١٥) ثيساريو فيردي شاعر برتغالي .

(١٦) Castillo de San Jorge : يقع على ربوة باتجاه شرق لشبونة .